الدرس الواحد والثلاثون

تفسير سورة المدثر [٧: ٣٠]

{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)}

قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[المدثر:٦-٧]: في هذا تنبيهٌ بليغ على ان من تصدى لهذه الأعباء العظام والمهام الجسام، فهي بحاجةٌ إلى الصبر، فلا بُدَّ أن يصبر على الأذى القولي والأذى الحسي، فسيطاله من ذلك الشيء الكثير وهذا ما وقع لنبينا ﷺ حتى أنه كان يومًا من الأيام يصلي عند الكعبة، وقد خرَّ ساجدًا، عن عَبْدَ اللهِّ بْنَ مَسْعُودٍ: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لاَ أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

سَاجِدٌ لاَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)[1].

وهنا ملمح أن الصبر عبادة ويجب أن يخلص لله، لا تصبر لمجرد التجلد وإظهار القوة، بعض الناس يفعل هذا لدواعٍ أخلاقية حتى لا يُحفَظ عنه أنه جزع، كقول الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

فيعدون، ولا شك أن الصبر محمدة، فهو من الأخلاق الكريمة، لكن الذي أمر الله به نبيه أن يجعل صبره لله؛ ليكون قربةً وعبادة.

والصبر: الحبس النفس، واصطلاحًا حبس النفس على ثلاثة أمور: حبسها على طاعة الله، وحبسها عن معصية الله، وحبسها على أقدار الله المؤلمة، ومن حبسها على طاعة الله مما يناسب هذا السياق الصبر على الدعوة إلى الله، وهذا يحتاج إليه الدعاة إلى الله ﷻ الناصرين للسُنَّة القامعين للبدعة، المعلمين للناس الخير، الآمرين للمعروف الناهين عن المنكر، فلا يظنوا أنهم سيقابلون بالترحاب والتصدير وتقبيل الرؤوس، كلا؛ بل الأحرى والأقرب أن يطالهم أذًى معنوي وأذًى قولي.

قال الله ﷻ بعد هذه الأوامر المتلاحقة: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر:٨-١٠].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٤٠)، ومسلم رقم (١٧٩٤).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

ذكّر نبيه بعد أن أمره بالصبر على ما يلقى من أذى قومه وواساه بأن هـؤلاء المعتـدين الظالمين وراءهم يومٌ ثقيـل يبتـدى، ﴿فَـإِذَا نُقِـرَ فِي النَّـاقُورِ﴾ أي: نُفـخ في الصـور، والنافخ والناقر هو إسرافيل عليه السلام، والنفخة المقصودة هنا: هي النفخة الثانية ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، وحسبك بشيءٍ سماه الله عسيرًا كيف يكون عسره، ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، مزيد توضيح وتخصيص بالمكذبين بك.

ثُمَّ قال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[المدثر:١١]: وما أعظم هذا التهديد وما أشد هذا الوعيد! أن يقول الله لنبيه: ﴿ذَرْنِي﴾، كأنما يقول: خلِّ بيني وبينه، كأنما يقول: لا تشفع له، لا تدعُ له، وما ظنك بأحدٍ قد أراد الله به سوءاً وشرًا، والمقصود به: هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان من صناديد قريش، ومن كبارها وأشرافها، وقد سمع قراءة النبيﷺ يومًا، قرأ النبي ﷺ صدر سورة (غافر) فعجب عجبًا شديدًا من القرآن، وقال شاهًا وهو متذوق، عنده من ثقافة العرب وآدابهم شيء كبير، وكان العرب كما تعرفون يعتنون بالكلمة والقصيدة والمثل، أمَّةٌ ذواقة، أمَّةٌ تحترم الكلمة وتتذوقها.

فقال ويصف القرآن: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن لأعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلا عليه»، حتى خافت قريش من أن يسلم الوليد، فعملوا له حيلة وأرادوا أن يثنوه، فإنه لو أسلم الوليد المخزومي لأسلمت قريش بأكملها، فتحيل أبا جهل بن هشام ووقف في طريقه حزينًا مكسوفًا، فمر به الوليد

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

فقال: ما لك يا أبا الحكم؟ هكذا تسميه قريش وإلا فهو أبو جهل كما سماه النبي ﷺ، قال: إني أرثي لحالك أن قومك يجمعون لك المال ليعطوك ويغنوك، قال: وما ذاك؟ قال: إنك تأتي محمدًا وابن أبي قحافة فتأكل من فضلة طعامهما، يريد أن ينخاه بنخوة الجاهلية، قال: أنا، قد علمت قريش أني أكثرهم مالًا، يريد أن يصده عن سماع النبي ﷺ وعن مجالسته[٢].

قوله: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾[المدثر: ١١-١٤].

كل هذه نِعَم أفاضها الله تعالى على الوليد، ومع ذلك قابلها بالكفران، مع أنه خرج من بطن أمه وحيدًا فريدًا لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا.

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾، كان له مالٌ طائل، يقال: بين مكة والطائف، من بساتين، وأنعام، والمال الممدود هو المال الذي له مغل مستمر كالأنعام التي تستولد والزروع والثمار فإنها تَكثُر وتتجدد، والتجارة التي تربح وتزدد.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾، أعطاه الله عشرةً من الولد، منهم خالد بن الوليد، ووصفهم بالشهود فإن نعمة البنين نعمة وكونهم شهودًا نعمةٌ أخرى، أي: إذا كانوا بين يديه، يحضرون معه المحافل، ويشهدون معه المواقف، ومن الناس من يكون له ذرية وأبناء كثر، لكن متفرقين في الأقطار، أو لا يحضرون مع أبيهم ولا يشهدون معه، فلا

(٢) تفسير الطبري: (٢٤/ ٢٤-٢٦).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

يتذوق طعم النعمة بهم حتى يكونوا يصحبونه ويشهدون معه المجالس ويحتكون به؛ فلهذا امتن الله على الوليد بن المغيرة بأن قال: (وَبَنِينَ شُهُودًا).

فالمال والبنون هما زينة الحياة الدنيا، كما قالت الآية الأخرى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الكهف؛ ٤٦. فهذا أحسن ما يتزين به الإنسان؛ أن يكون له مال طائل وولد شاهد.

قوله: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾[المدثر: ١١-١٤]، أي: وطأت له أكناف العيش ويسرت أمره؛ حتى بلغ السيادة في قريش والشرف.

لأنه الذي رَبَّى خلقه بنعمه، فهو لا يمنع نعمته وفضله وإنعامه على الكافر؛ بل ينعم عليه في الدنيا لكن ذلك يكون وزرًا عليه في الآخرة؛ لأنه لم يقابل هذه النعمة بالشكران، فالله تعالى امتن على رجل من صناديد قريش وأكثرهم تكذيبًا؛ وهو الوليد بن المغيرة، فلا يستغرب الإنسان ذلك؛ لأن هذا هو مقتضى الربوبية؛ ولهذا قال: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) الأعراف؛ آية ١٥٦. (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا) النحل؛ آية ١٨. (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) النحل؛ آية ٥٣. ... إلى غيرها من الآيات.

قوله: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾[المدثر:١٥]: مع تكذيبه يريد الزيادة ويطمح إلى شيءٍ أكثر.

﴿كَلَّا﴾ [المدثر:١٦]، أي: ليس الأمر كما يظن.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

قوله: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾[المدثر:١٥-١٦]: أي: لا يستحق ذلك بسبب عناده وتكذيبه بآيات الله، ثُمَّ وصف الله تعالى حاله وهو يريد أن ينال من القرآن ويهونه في نفوس المشركين.

قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾[المدثر:١٧]: هذا تهديدٌ ووعيدٌ من الله أنه سيصعِّده جبلًا في النار، حتى إذا بلغ منتهاه خرَّ إلى أسفله يعود مرةً إثر مرة. وقيل عذابًا متصاعدًا متزايدًا لا هوادة فيه.

قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[المدثر:١٨-١٩]: ومعنى (فقُتِل)أي: لُعِن، ووكرر الله عليه ذلك.

لقد فكر وأمعن في التفكير؛ لكن مسلكه في التفكير كان مسلكاً باطلا ومسلكاً خاطئاً، فأورده المهالك... وهكذا، كُل من لا يستنير بنور الله من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم ربما كانوا أذكياء؛ لكنهم إن لم يستنيروا بنور الله -عز وجل- لم ينفعهم تفكيرهم وعقولهم؛ لأن العقل إذا لم يستنر بنور الله فإنه يضل، لا بد أن يُعمل عقله على نور من الله، كما لو أنك دخلت هذا المسجد ليلاً وهو مُظلم فقد ترتطم بعمود رغم أنك تملك عينين، وقد تعثر بكرسي أو بحامل مصاحف أو بإنسان، فإذا وجدت لوحة مفاتيح المصابيح وأضأتها استنار المكان. وكما أن العين أداة للأبصار، كذلك العقل أداة التفكير، فلا يستقيم العقل إلا حينما يستنير بنور الله، فحينئذ يكون سوياً صائباً سليماً، وأما إذا استقّل عن نور الله وعن هدي أنبياء

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الله فإنه يضّل؛ وهذا ما آلَ إليه الوليد بن المغيرة ومن سبقه ومن تبعه من الفلاسفة والمتكلمين، كل من لم يستنِر بنور الله، حتى وإن كان صاحب ذكاء وفطنة وعلم فإنه يضل؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن المتكلمين قال: أوتوا ذكاءً ولم يؤتَوا زكاءً، وأوتوا فهوماً ولم يُؤتوا علوماً" يعني أن الآلة والأداة موجودة عندهم، ولكن التوفيق والهدى قد سُلبوا إياه![٣].

قوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾[المدثر:٢١-٢٣]:

يرسم السياق صورةً مزرية تبعث على السخرية لرجلٍ يتكايس، يدعي الروية، وعمق التفكير، وبعد النظر، فهو يقطب بجبينه، وتظهر عليه المظاهر الانفعالية، ويتظاهر بالموضوعية والبحث عن نتيجة عميقة وحقيقة صحيحة. ولعلها لاحت له لكنه غلبت عليه شقوته فانتكس، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[المدثر:٢٣-٢٤].

كأنما يتظاهر أمام العامة بإنه يمعن التفكير وأنه بعيد النظر؛ لكي يوهمهم بإنه وصل إلى الرأي الصواب وأنه أصاب كبد الحقيقة، وهي لا تعدو أن تكون إلا تمثيلاً، فلا تغتر ببعض هؤلاء الذين يتظاهرون بهذه المظاهر ثم يُضّلون عباد الله، فهذا من باب التغرير بالعوام والبُسطاء.

---

(٣) مجموع الفتاوى: (٥/ ١١٩).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

المشار إليه القرآن، الذي قال عنه في أول الأمر: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، الخ»، فلما نخته قريش بنخوة الجاهلية، أراد استرضاءهم، فقال: «والله ما محمدٍ بكاهن قد سمعنا سجع الكهان، فما قوله بكهانة، والله ما محمدٌ بمجنون، هل رأيتموه يصرع؟ ما كان يصرع، والله ما محمدٌ بكذاب؟ هل جربتم عليه كذبًا؟ والله ما جربنا عليه كذبًا»، كل الاحتمالات هذه فنيت، ماذا بقي؟ أن يتهمه بالسحر[4].

قوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[المدثر:٢٤-٢٥].

بئس ما قال، بئس ما فاه به لسانه أن وصف القرآن العظيم كلام رب العالمين، بأنه سحرٌ يُؤثر، وإنه من قول البشر، لم يجد توصيفًا، وتكييفًا يتخرج به من ذم قومه له إلا هذا الوصف الكاذب البائر.

أين المقدمات الصحيحة التي حدتك لأن تقول: إنه سحر يؤثر؟ ما الدليل؟

تبحث عن الدليل فلا تجد شيئاً يستند عليه سوى أنه لم يمكنه أن يقول أنه من سجع الكُهان، ولم يمكنه أن يصف قائله -عليه الصلاة والسلام- بالكذب؛ لأنه لم يُجرب عليه الكذب ولم يمكنه وصفه بالشعر؛ لأنه يعرف بحور الشعر ورجزه، فما بقي له إلا أن يقول هو سحر! فقط! هذا ما أدى إليه تفكيره الفاسد، فهؤلاء المكذبون يستسهلون إطلاق التهم الفاجرة والرجم بالغيب دون دليل وبينّة.

---

(٤)تفسير الطبري: (٢٤/ ٢٤-٢٦).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر:٢٦]: وهي النار، والإصلاء بأن يشوى فيها، فتكتنفه من جميع جهاته، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾[المدثر:٢٦-٢٧].

الاستفهام التعظيم.

﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ(٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾[المدثر:٢٨-٢٩].

تلفح وجوههم لأبشارهم وجلودهم كما قال تعالى: {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} [المؤمنون: ١٠٤].

قوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[المدثر:٣٠]: وهم خزنة النار.

فهكذا توعده الله تعالى هذا المكذب بهذا الوعيد الهائل المروّع المخيف وهي سقر التي وصفها بالأوصاف المريعة: (لوّاحة للبشر): أي تشويهم شوياً تقلب جلودهم وتحرقها، ثم يبدلهم الله جلوداً أخرى... وهكذا، فهم يُعرضون عليها وتلفح وجوههم النار وتبدل جلودهم جلوداً غير الأولى ليستمر معهم العذاب.

قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾[المدثر:١٧]: هذا تهديدٌ ووعيدٌ من الله أنه سيصعِّده جبلًا في النار، حتى إذا بلغ منتهاه خرَّ إلى أسفله يعود مرةً إثر مرة. وقيل عذابًا متصاعدًا متزايدًا لا هوادة فيه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله